ما انتهى إلينا منها عن المأساة أثر صغير يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» كتبه فيما يظهر مسلم أو موريسكي من أشراف غرناطة وذلك سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٢ م) أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة. وفيه يصف حوادث سقوطها وما تلا ذلك من ارغام المسلمين على التنصر، ومن مطاردتهم وإرهاقهم وتعذيبهم، ويجمل لنا مأساة التنصر في هذه الكلمات المؤثرة.

ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك قشتالة) الى التنصر وأكرههم عليه وذلك في سنة اربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرها، وصارت الاندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وظامة ما أكبرها.(١)

بيد أن هذه الرواية العربية الوحيدة تقف في تتبع حوادث المأساة عند هذا الحد؛ وإذن فليس لدينا لتتبع حوادث هذا الصراع الأخير بين الموريسكيين وبين اسبانيا النصرانية سوى المصادر القشتالية؛ وإذا كانت هذه المصادر النصرانية، تتأثر في كثير من المواطن بالعوامل الدينية والقومية، فانها مع ذلك تعرض هذه الحوادث المؤسية في أسلوب مؤثر، ولا تضن في بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها على ذلك الشعب الباسل الذي لبث يناضل حتى الرمق الأخير عن كرامته وعن تراثه الروحي والقومي.

(البحث بقية)
(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) أخبار العصر (طبعة المشارق ميلر) ص ٥٤، ٥٥

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الديانة المصرية — قداسة الحيوان عند الخاصة

بقي علينا قبل أن نغادر فصل الألوهية عند قدماء المصريين أن نبين حقيقة علمية ظلت مستورة وقتا طويلا يكتنفها الغموض ويحوطها الابهام من كل جانب، وظل العلماء والباحثون يتخبطون في حل مشكلتها مدى بعيدا. تلك المشكلة هي عبادة المصريين للحيوانات التي طالما كانت موضع الحيرة من المستعمرين الذين يدينون بمدنية مصر الفائقة ورقي عقليتها الممتاز الذي لا يتفق مع عبادة الحيوانات تحت لواء منطق مستقيم

وها نحن أولاء نبين رأي الخاصة المتفلسفين في عبادة الحيوان بعد أن أبنا في الكلمات السابقة منشأ عقائد العامة الذين كانوا يعبدون تلك الحيوانات دون أن ينشغلوا بأسباب هذه العبادة. وقد ذكرنا لك فروض العلماء التي تمحلوها في هذا الشأن؛ أما الخواص من المصريين فمبررات عبادتهم للحيوان تتلخص فيما يلي:

كان المصريون يعتقدون أن الروح تعود بعد الموت فتقطن في المومياء المحنطة وفي التمثال الحجري على ما سنبين ذلك في بابه، ثم تدرجوا إلى أن للإنسان عدة شخصيات بعضها مادي وبعضها روحي، وأن كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها في مأوى خاص وإذا كان هذا شأن الانسان فأحر بالإله — وهو الأعظم روحانية — أن يكون له عدة شخصيات تحل كل واحدة منها في مأوى، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مآوي شخصيات الإله لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال، وإنما يجب أن تكون مستحوزة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان، فأخذوا يحلون الإله تارة في ثور وأخرى في تمساح،

وثالثة فى قط ، ورابعة فى طائر ، ثم يتبعون هذا الحلول بتقديس ذلك القط أو ذاك الثور أو هذا الطائر ، ويقدمون إلى هذه الحيوانات أنواع العبادة والإجلال ، لاعلى أنها معبودات لهم ، ولكن على أنها ظروف قد حلت فيها شخصيات الاله الأعظم التى لا تتناهى .

وكانت هذه العبادة فى أول الأمر مقصورة على فرد واحد من أفراد كل نوع من الحيوانات ينحصر فيه الاختيار من بين جميع أفراد نوعه لميزة لا توجد فى غيره ، ثم تطورت هذه العقيدة فأخذت تشمل أفراد كل نوع عبد منه فرد واحد فى الماضى . وقد شاهد « هيرودوت » فى مصر هذه الحالة فنبأنا بأن حريقاً شب فى مصر فوجه السكان جميعهم عنايتهم إلى نجاة القطط قبل أن يفكروا فى إطفاء النار . وهو ينبئنا كذلك بأن موت بعض الحيوانات كالقطط والكلاب كان يعقبه فى مصر حداد شامل وألم عميق[1] . وليست رواية هيرودوت وبأغرب مما يحدثنا به الأدب عن الحيوانات ، إذ ينبئنا أن المصريين كانوا يعتقدون أنها مشتملة على كثير من أسرار الكون الخفية ، فهى مثلا تعلم الغيب وتحيط بما فى المستقبل الغامض على الانسان ، ولكنها تحتفظ بهذه الأسرار ولا تبوح بشىء منها إلا للمقربين الذين اصطفاهم الاله أو سيصطفيهم عما قريب . وها هى ذى الأساطير المصرية تحدثنا فى قصة « الأخوين » أن « بيتيو » أحد الشقيقين اللذين وشت بينهما زوجة أكبرهما كان عند مواشيه ، وهو لا يدرى تربص شقيقه به ، فهتفت به إحدى البقرات قائلة : هاهو ذا أخوك يريد قتلك بسكينة فانج بنفسك من أمامه [2]

ولم يكن الحيوان وحده هو موضع هذا الحلول الالهى ومقر تلك الأسرار الكونية ، وإنما كان النبات كذلك . ولهذا فكثيراً ما يصادفك فى التاريخ المصرى : حقائقه وأساطيره ، آثار أو قصص تتحدث عن الأشجار المقدسة الحائزة لغوامض الأسرار . فمن ذلك ما ينبئنا به كتاب « الأدب المصرى القديم » من أنه بينما كان فرعون جالساً ذات مرة مع زوجته التى كان يحبها حباً جما تحت إحدى الشجرات المقدسة فى سرور وسعادة ، وإذا بالشجرة تنحنى على الملك وتسر فى أذنه أن زوجته خائنة ؛ إلى غير ذلك مما لو تعقبناه لطال بنا البحث

ارتقت بعد ذلك هذه العقيدة وسارت إلى الفلسفة بخطوات واسعة فقررت أن الإله حال فى كل كائن حى ، بل فى كل جزئية من جزئيات الطبيعة ، وأنه ذو مظاهر مختلفة . فهو مرة روح فى جسم حى ، ومرة روح مجردة ، وثالثة قوة من قوى الطبيعة فى الجو أو على الأرض أو فى أعماق البحار ؛ وهذا الحلول الدينى أولا ، والفلسفى ثانياً ، هو سر عبادتهم للحيوان والنبات .

النفس عند قدماء المصريين

يرى بعض العلماء أن المصريين فى أول عصورهم الفكرية لم يكونوا يعنون بالروح ، أو بعبارة أدق لم يكن عندهم عن الروح فكرة واضحة . ويعللون هذا بأن المصريين كانوا يعتقدون فى تلك العهود السحيقة أن الجسم نفس حى يستمتع فى القبر بكل مميزات الحياة . ولكن هذا الرأى عندى غير صحيح ، إذ أن المعروف عند قدماء المصريين أنهم كانوا منذ أقدم عصورهم يدينون بوجود كائن أجنبى عن الجسم ، وأنه أثناء وجود الجسم فى القبر يختلف إليه من حين إلى آخر ، وأنهم لهذا كانوا يتركون فى بناء القبر ثغرة بسيطة تمر منها الروح جيئة وذهاباً ، وأنه لكى تظل الروح حية يجب أن يبقى مأواها وهو الجسم سليما من الخدوش والجروح ، ولا يضمن سلامة الجسم إلا التحنيط ، فابتدعوه مدفوعين إلى ذلك باحتياجهم اليه ، (والحيلة بنت الحاجة كما يقولون) ؛ ثم أخذ المحنطون الفنيون يتنافسون فى هذه الصناعة ، ويبرهن كل واحد منهم على أنه أقدر من صاحبه على حفظ الجسم سليما زمناً طويلا . غير أنهم اقتنعوا بعد ذلك بأن الجسم مهما كان تحنيطه متقناً سيلحقه البلى على كل حال . وهنا تتعرض الروح للخطر ، فلا مناص إذاً من أن يصنعوا لها مأوى آخر تقيم فيه إذا ما بلى الجسم ؛ فاخترعوا فن النحت . ولما كانت الأسطورة الدينية تشترط أن يكون هذا التمثال المحنط شبيهاً بالجسم الأصلى فى كل تقاطيعه وملامحه دفعتهم هذه الوسوسة إلى الاجادة والإتقان فى النحت بهيئة تعجز أكابر فنانى العصور الحديثة .

عدد المصريون بعد ذلك التماثيل للشخص الواحد حتى جاوزت فى بعض الأحيان مائة تمثال للدفين الواحد . وكان لهذا التعديد سببان : الأول الوسوسة الدينية التى كانت تقض مضاجعهم وتنذرهم بالأخطار المرعبة التى تتعرض لها الروح إذا أخطأ المثال فى شىء ولو يسيرا من تقاطيع الجسم أو

(١) راجع هيرودوت الكتاب الثانى فصلى ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) راجع كتاب « قصص مصر الشعبية » ترجمة الأستاذ « ماسبرو » طبعة ثالثة

ملامح الوجه ، فكان الاكثار من التماثيل يقيهم شر هذا الخوف المتسيطر . أما السبب الثانى فهو أن تكون الروح فى عالم الآخرة غنية سعيدة بالتنقل من تمثال إلى تمثال . ولكن منشأ هذا التعديد قد نسى بمرور الزمن ثم تطرقت اليه التأويلات المختلفة التى تلحق عادة كل عقيدة نسى أصلها . وكان أحد هذه التأويلات الكثيرة أن هذه التماثيل لم تصنع عبثاً ، وإنما صنع كل تمثال منها لروح خاصة ، لأن كل شخص يشتمل على عدة أرواح تسمى إحداها : « L, âme » أى الروح ، والثانية : « L, esprit » أى النفس أو العقل . والثالثة « Le double » (دوبل) وهى صورة صيغت من مادة أدق من مادة الجسم ، ولكنها على هيئة الجسم تماما . والرابعة « Le Ka » (الكا) وهى الجوهر الخالد الموجود فى الانسان وفى كل إله ، وهو سر الحياة وسر السمو .

وتمتاز « الكا » عند المصريين عن بقية شخصيات النفس بأنها تظل فى عالم السماء مادام الانسان فى الحياة ، فاذا مات اتصلت به اتصالا وثيقاً يجعله غير قابل للزوال . أما الروح فانها تظل مترددة على الجسم فى قبره كما أسلفنا . حتى اذا مافاز الميت برضى « توت » انكشفت أمامه كل أسرار الحياة وأصبح لافرق بينه وبين الأحياء إلا أنهم يسيرون على الأرض وهو نائم فى قبره . ومن أسباب هذا الرضى أن يتعبد الشخص فى حالة حياته بتلاوة كتاب توت وأن يوصى بوضعه معه فى قبره إذا أمكن ذلك . وفى هذا المعنى تقول الأسطورة المصرية « إن كتاب توت الذى كتبه الإله بيده ، والذى لا يحتوى إلا على عزيمتين اثنتين والذى اشتمل على جميع كلمات الخلق والتكوين المقيدة للآلهة أنفسهم ، إذا حصلت عليه ثم تلوت القسم الأول منه سحرت السماء والأرض وعالم الليل والجبال والبحار وفهمت لغة الطير واستطعت أن ترى الأسماك فى أغوار الأنهار ، لأن قوة خفية تصعد بها على وجه الماء ؛ واذا تلوت القسم الثانى من هذا الكتاب فانك بعد أن تصير فى القبر تعود إلى شكلك الذى كنت عليه فى حال الحياة وترى الشمس حينما تشرق والقمر حينما يظهر (١) » .

وكان المصريون يعتقدون أن الروح وهى فى عالم الآخرة تظل مفتقرة إلى ما يقدمه إليها الأحياء من طعام وشراب فى الضحايا والقرابين ، وانها إذا تركت بدون هذه الضحايا يؤلمها هذا الاهمال كما يؤلم الأحياء . ولا ريب أن هذه العقيدة تدل للوهلة الأولى على مادية المصريين . وقد استند بعض الباحثين إلى هذه الأسطورة ومثيلاتها من ترك المصريين ثغرة للروح تمر منها ، ومن قولهم بافتقار الروح إلى مأوى مادى تقيم فيه كالمومياء والتمثال ، فجزموا من كل هذا بأنه اذا كان للمصريين فلسفة فانها مادية ساذجة ؛ وهو قول بعيد عن الصحة بعد العدم عن الوجود ، لأن للنفس عند المصريين عدة شخصيات ، فاذا كانت إحدى هذه الشخصيات مادية تأكل وتشرب بعد الموت من الضحايا والقرابين وتحتاج إلى ماوى تقيم فيه وثغرة تنفذ منها ، فلا ينزل ذلك بفلسفتهم إلى المادية ، لأن قولهم بوجود الشخصية الأخرى التي هى جوهر الأسرار الإلهية يصعد بهذه الفلسفة إلى أسمى أوج الروحانية . على أنى لا أدرى كيف يجرؤ هذا البعض من العلماء على أن يرموا فلسفة المصريين بالمادية الساذجة من أجل قولهم بافتقار الروح إلى الأكل والشرب والمأوى ثم هم يسوغون لأنفسهم أن يشيدوا بفلسفه « تاليس » و « أناكسيماندر » و « أناكسيمين » و « ديوجين » ، وهم لم تخطر لهم الروح ببال ؛ أو بفلسفة « ديموقريت » و « إبيقور » اللذين — وإن قالا بالثنائية — لا يميزان الروح عن المادة إلا بنفس الميزة التى ميز بها المصريون من قبل « الدوبل » عن الجسم ، وهى كما نص « ديموقريت » و « إبيقور » : « إن النفس من ذرات أدق وأكثر شفافية من ذرات الجسم ، وهذا هو كل ما بينهما من فرق » أضف إلى هذا أن « أفلاطون » نفسه — وهو ثانى أجلاء فلاسفة اليونان الروحانيين — يرى أن النفس مكونة من ثلاث قوى : إحداها جوهرية خالدة ، والاثنتان الأخريان ماديتان قابلتان للفناء فهل عيب التفكير المصرى هو أنه سبق غيره إلى النظريات الراقية بأكثر من عشرين قرنا ؟ !

مما هو جدير بالذكر عند قدماء المصريين أن الروح كانت عندهم تتصل بعالم الأحياء فتذكره بعظات الماضى وتنبئه بأسرار المستقبل وتنصحه بعمل شىء وتحذره من عمل آخر إلى غير ذلك مما تفيض به الأساطير

(يتبع)

محمد عبد المطلب

(١) راجع « القصص المصرية » للاستاذ « ماسبرو » صفحة (١٠٨)